

خطبة عيد الفطر المبارك : ولعلكم تشكرون

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: منزلة الشكر في الإسلام

العنصر الثاني: الشكر عمل

العنصر الثالث: وسائل تحقيق الشكر

المقدمة:

أما بعد:

العنصر الأول: منزلة الشكر في الإسلام

إن للشكر منزلة عليا في الإسلام؛ بل هو نصف الإيمان؛ والنصف الآخر هو الصبر؛ لأن حال المؤمن لا يخلو منهما؛ فعن صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ!! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ!!" إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ!! وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ!!" (مسلم)؛ وفي ذلك يقول ابن القيم: "الإيمان يبنى على الصبر والشكر، فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه" (الفوائد).

وإذا كان الواحد منا لا يخلو حاله من هذين؛ فهو إما صابر وإما شاكِر؛ فقد جمع الأنبياء بين مقامي الشكر والصبر؛ ليكونوا بذلك في أعلى درجات الإيمان؛ وفي مقدمتهم رسولنا صلى الله عليه وسلم؛ فعن أَبِي أَمَامَةَ؛ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا! فقلتُ: لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبِعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ؛ فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ؛ وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ." (أحمد والترمذي).

ولو نظرنا إلى الصبر في حياة الأنبياء تجد أن الله خص أولى العزم منهم؛ فقال تعالى: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } (الأحقاف: 35)؛ وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي مقام الشكر نجد أن الله أثنى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر. فقال: { ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } (الإسراء: 3). كما أثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكره نعمه. فقال: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (النحل: 120-121)؛ فأخبر عنه سبحانه بصفات ثم ختمها بأنه شاكِر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله. وأمر الله - عز وجل - عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة وتكليمه إياه بالشكر. فقال تعالى: { يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } (الأعراف: 144). وبهذا جمع الله لأنبيائه بين مقامي الشكر والصبر ليكونوا في أعلى درجات الإيمان والتقوى!!

العنصر الثاني: الشكر عمل

لقد زيل الله آيات الصيام بالشكر، قال تعالى: { وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (البقرة: 185) قال العلماء: "شكر الطاعة طاعة مثلها"، فشكر الصيام صيام مثله وهكذا، بمعنى أنك صمت شهر رمضان والصيام لم ينته بعد، فهناك ست من شوال، والاثنتين والخميس وغيرها، ولذلك هناك فرق بين الشكر والحمد، فالحمد باللسان والشكر بالعمل، فالشكر يكون من جنس النعمة التي أنعم الله بها عليك، فإذا تكاسل العبد عن الطاعة فهذا يكون دليل على عدم قبول العمل عند الله، وإذا داوم عليها وثبتها فهذا دليل على قبولها عند الله، وكان هدي النبي - صلى الله عليه وسلم - المداومة على الأعمال الصالحة، فعن عائشة - رضي الله عنها -

قالت: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا عمل عملاً أثبته." (رواه مسلم)، وأحب الأعمال إلى الله وإلى رسوله أدومها وإن قلت، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل." (متفق عليه)، وَقَالَتْ عَائِشَةُ - رضي الله عنها -: "كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً" (البخاري ومسلم). ، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، وما دام العمل لله فإن الله - جل وعلا - سيقبله برحمته.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: " .. إن الناس يظنون أن الشكر أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عزَّ وجلَّ"؛ ولهذا قال الله لآل داود { اَعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلًا مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } . (سبأ : 13)؛ قال ثابت البناني : بلغنا أن داود نبي الله جزأ الصلاة في بيوته على نسائه وولده ، فلم تكن تأتي ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان قائم من آل داود يصلي ، فعمتهم هذه الآية : { اَعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا } (رواه ابن أبي شيبة) .

فإن الله أمر آل داود بالعمل شكراً، لأن هناك فرقاً بين شكر القول وشكر العمل، فشكر القول باللسان يسمى حمداً وبالعمل يسمى شكراً ، لذلك قال: اعملوا ، ولم يقل: قولوا شكراً، لأن الشاكرين بالعمل قلة، لذلك زيل الآية بقوله: { وَقَلِيلًا مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } .

وقد مر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم برجل في السوق فإذا بالرجل يدعو ويقول : (اللهم اجعلني من عبادك القليل .. اللهم اجعلني من عبادك القليل) فقال له سيدنا عمر: من أين أتيت بهذا الدعاء؟ فقال هذا الرجل: إن الله يقول في كتابه العزيز : { وَقَلِيلًا مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } ، وقال: { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلًا مَا هُمْ } (ص : 24)، فأسأل الله أن يجعلني من هؤلاء القليل، فبكى سيدنا عمر وقال: كل الناس أوقفه منك يا عمر . (رواه ابن أبي شيبة في مصنفه والإمام أحمد جفى الزهد) .

فشكر النعمة استخداماً فيما خلقت له؛ فإذا أكرمك الله بمالٍ فلا تنفقه في حرام، وإذا أنعم الله عليك بتلفازٍ فلا تستعمله في حرام، وشبكة الانترنت تستخدمها في الدعوة إلى الله... إلخ، لأن شكر النعم استخداماً في طاعة الله، وكفرها استخداماً في الفساد والإفساد. ومن رزقه الله علمًا فشكره بالإنفاق منه بأن يعلم غيره، ويفقه أهله وجاره، ومن رزقه الله جاهًا، فشكره بأن يستعمله في تيسير الحاجات للآخرين، وقضاء مصالحهم.

ومن أفاض الله عليه إيماناً راسخاً، و يقيناً ثابتاً، فشكره أن يفيض على الآخرين من إيمانه، وأن يسكب عليهم من يقينه؛ وذلك بأن يذكرهم بنعم الله وآلائه، وأن يحيي في قلوبهم الرجاء والخوف والخشية من الله، وأن يُبَيِّت في قلوبهم بأن الآجال والأرزاق بيد الله، وأن الخلق لا يملكون له نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأن من أسماء الله الحسنى أنه المحيي المميت، الرزاق، النافع الضار، القابض الباسط.

ومن رزقه الله الذرية فإن شكرها يكون بأن يغرس في قلبها عقيدة التوحيد من الصغر، وأن ينشئها على طاعة الله - عزَّ وجلَّ - وأن يحصنها ويعيذها من الشيطان كما أعادت امرأة عمران ابنتها حين قالت: { وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّتِيهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } (آل عمران: 36).

وكذلك شكر الله - عزَّ وجلَّ - على ما أنعم به علينا من جوارح، كاليدنين والرجلين والعينين والأذنين وغيرها؛ أن نستخدمها في طاعة الله عز وجل؛ " فقد روي أن أبا حازم جاءه رجل فقال له: ما شكر العينين؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته.

قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً أخفيتيه. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله - عزَّ وجلَّ - هو فيهما، قال فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعاماً، وأعلاه علماً، قال فما شكر الفرج؟

قال: كما قال الله - عزَّ وجلَّ - : { وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } (المؤمنون: 5 - 7)، قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت حياً غبطته بهما عمله، وإن رأيت ميتاً مقتته

كففتها عن عمله، وأنت شاكر لله - عزَّ وجلَّ - فأما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء، فأخذ بطرفه، ولم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر " «عدة الصابرين» .

ولقد أنعم الله علينا بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَذَلُولٌ كَفَّارٌ } (إبراهيم: 34)، وقال سبحانه: { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ } (النحل: 18).

وهنا وقفة لطيفة، فتجد أن الله ختم الآيتين بخاتمتين مختلفتين؛ ففي سورة إبراهيم ختمت بقوله تعالى: { إن الإنسان لظلم كفار }، وأما في سورة النحل فختمت بقوله تعالى: { إن الله لغفور رحيم } فما تعليل ذلك؟

ولتلمس العلة في ذلك - والله أعلم - أنقل ما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير حيث يقول: «وقد خولف بين ختام هذه الآية (آية النحل)، وختام آية سورة إبراهيم؛ إذ وقع هنالك { وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلم كفار } لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى: { ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرًا } فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله. وأما هذه الآية فقد جاءت خطابًا للفريقين، كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما. ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم { لظلم كفار } بوصفين هنا { لغفور رحيم } إشارة إلى أن تلك النعم كانت سببًا لظلم الإنسان وكفره، وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان». أ. هـ

وأقف وقفة عند قول الإمام ابن عاشور: " والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان " فأقول: الماء نعمة فإذا استخدمته في طاعة وحافظت عليه فقد شكرت النعمة وأديت حقها؛ فبذلك تنال الرحمة والمغفرة { إن الله لغفور رحيم }!!

أما إذا استخدمته في معصية وأسرفت فيه؛ فقد ظلمت نفسك وكفرت بالنعمة ولم تؤد حقها فبذلك دخلت في دائرة الظلم والكفران { إن الإنسان لظلم كفار }!! فالأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان!! وقس على ذلك بقية النعم من المال والتكنولوجيات الحديثة من النت والدش والفييس بوك والمحمول والبلوتوث وغير ذلك.

ولقد ذكر القرآن لنا نماذج عديدة من الأمم السابقة ممن بدلوا نعمة الله كفرًا وماذا أحل بهم؛ وأكتفي بذكر مثالين:

الأول: قوله تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } (النحل: 112).

والثاني: قوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } (سبأ: 15 - 17) { قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: " كانت سبأ في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم، وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته؛ فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد شذر مذر. " (تفسير ابن كثير).

فاعلموا أن شكر الله على نعمه يستلزم مزيدها ونمائها؛ ووجد النعمة يستوجب زوالها وذهاها فضلًا عن العذاب الشديد الذي أعده الله لصاحبها. وهذا هو العهد والميثاق الذي أخذه الله على نفسه في قوله: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } (إبراهيم: 7).

قال بعض أهل العلم: « من أعطي أربعًا لم يمنع أربعًا: من أعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لم يمنع الصواب. » « إحياء علوم الدين » .

وقال بكر بن عبد الله المزني: «قلت لأخ لي أوصني. فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنوب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار. » «عدة الصابرين» .

وبالمثال يتضح المقال؛ فتعالوا من خلال هذه القصة النبوية نعرف جزاء شكر النعمة وكفرها .

فَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ ، وَأَقْرَعَ ، وَأَعْمَى ، بَدَأَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْ نُوِّحَ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، قَدِ قَدَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ ، وَأَعْطِيَنِي لَوْ نُوِّحَ حَسَنًا ، وَجِلْدًا حَسَنًا ، فَقَالَ : أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْإِبِلُ ، فَأَعْطِيَنِي نَاقَةً عُشْرَاءَ ، فَقَالَ : يَبَارِكُ لَكَ فِيهَا ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ هَذَا عَنِّي ، قَدِ قَدَّرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ ، وَأَعْطِيَنِي شَعْرًا حَسَنًا ، قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقْرُ ، فَأَعْطَاهُ بَقْرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ : يَبَارِكُ لَكَ فِيهَا ، وَأَتَى الْأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي ، فَأَبْصُرُ بِهِ النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهُ ، قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْغَنَمُ ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا ، فَأَنْتَحَ هَذَانِ ، وَوَلَدَ هَذَا ، فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٍ مِنْ إِبِلٍ ، وَهَذَا وَاِدٍ مِنْ بَقَرٍ ، وَهَذَا وَاِدٍ مِنْ غَنَمٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ ، تَقَطَّعَتْ بِهِ الْحِبَالُ فِي سَفَرِهِ ، فَلَا بِلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ، ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ ، وَالْمَالِ بَعِيرًا أَتَبَلَّغَ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْحَقَّ كَثِيرٌ ، فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يُقَدِّرُكَ النَّاسُ ، فَفَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَايِرٍ عَنْ كَايِرٍ ، فَقَالَ : إِنَّ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا . قَالَ إِنَّ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ ، وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ ، وَتَقَطَّعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بِلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ، ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغَ بِهَا فِي سَفَرِي ، فَقَالَ : قَدِ كُنْتُ أَعْمَى ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرِي ، وَفَقِيرًا ، فَحُذِّ مَا شِئْتُ ، فَوَاللَّهِ لَا أَحْمَدُكَ الْيَوْمَ لِشَيْءٍ أَحَدْتَهُ اللَّهُ ، فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلَيْتُمْ ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ ، وَسَخِطَ عَلَيَّ صَاحِبِيكَ . " (متفق عليه) .

العنصر الثالث: وسائل تحقيق الشكر

قد يقول قائل؛ إن قيمة الشكر قيمة جميلة ومقام محمود أريد أن أبلغه؛ فما هي الوسائل والأسباب المعينة والموصلة إلى درجة الشكر؟! أقول: جمعتها ولخصتها لكم فيما يلي:

أولاً: الدعاء: وذلك بأن تكثر من الدعاء بأن يجعلك الله من الشاكرين. كما أوصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا فقال: " يَا مُعَاذُ: لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. " (أحمد وأبوداود والنسائي)؛ والأقرب أن هذا الدعاء يقال في آخر الصلاة قبل السلام. فيحسن بالمؤمن أن يكثر الدعاء بتيسير الشكر في كل حال. وكان صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء أن يجعله الله شكارًا بصيغة المبالغة في الشكر فيقول: "... رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا لَكَ ذَكَارًا لَكَ رَهَابًا لَكَ مُطِيعًا إِلَيْكَ مُخْبِتًا إِلَيْكَ أَوْاهًا مُنِيبًا... " (أحمد والترمذي وابن ماجه) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَنَامٍ الْبِيضِيِّ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحَدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ . وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ . " (أبوداود)

ثانيا: ملازمة تقوى الله والعمل بطاعته: قال تعالى: { وَوَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [آل عمران: 123]. قال ابن إسحاق: "أي: فاتقوني؛ فإنه شكر نعمتي" [السيرة 3/113].

ولهذا كان صلى الله عليه يقوم الليل حتى تتورم قدماه شكراً لله تعالى؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَقَطَّرَ رِجْلَاهُ؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! " (متفق عليه) ؛ فكثير منكم يتقاعس حتى عن صلاة الفرض!! فهل أنتم شاكرون!!؟

ثالثا: التفكير في نعم الله عليك: قال تعالى: { وَاللَّهُ أَحْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل: 78]. فانظر في نفسك كم نعمة تحملها؟! وفي الكون كم نعمة أسداها الله لك؟! فالؤمن إذا شاهد نعمة تذكر حق المولى عليه وأحدث ذلك في نفسه شكرا عظيما لمولاه!! كما حصل للنبي سليمان عليه الصلاة والسلام لما سمع كلام النملة؛

فاستشعر عظيم نعمة الله عليه بسعة ملكه وتسخير البهائم له ومعرفته منقطعهم؛ فشكر الله في الحال وخضع قلبه لله!! قال تعالى: { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ } . (النمل: 18 ؛ 19) .

رابعاً: القناعة والرضا وعدم النظر إلى ما في يد الغير: فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة: "كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ؛ وَكُنْ فَنِعْمًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ". [ابن ماجة والبيهقي]. فينبغي على العبد أن يقنع ويرضى بما قسمه الله له؛ ولا ينظر إلى من هو أعلى منه في الدنيا؛ فإن ذلك ادعى لكمال الشكر؛ فعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " حُصِّلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا؛ وَمَنْ لَمْ تَكُونَا فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا: مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ. وَمَنْ نَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهُ عَلَى مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا. وَمَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاسِيفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ؛ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا." (الترمذي وابن ماجة)؛ فلو نظر الإنسان إلى أحوال الفقراء والمساكين والمتضررين الذين هم أنزل وأقل منه في الدنيا؛ لأدرك قلبه عظيم النعم التي هو فيها فيحدث ذلك شكرها لتثبت وتزيد!!

خامساً: المداومة على صلاة الضحى: لأن المداومة على صلاة الضحى يومياً شكرٌ لنعمة الصحة والعافية؛ فعن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يُضْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» [البخاري ومسلم].

سادساً: تذكر السؤال على النعم يوم القيامة: فينبغي على الإنسان أن يتذكر في كل نعمة أسديت إليه أنه مسئول عنها أمام الله؛ فإن ذلك ادعى لتمام الشكر!! قال تعالى: { ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } . قال ابن كثير: " ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته."

وقفت عند هذه الآية متأملاً قائلاً: الرسول- عليه السلام- دخل على صحابته الكرام وهم يأخذون الخبز فيغمسونه في الزيت أو الخل. فقال لهم: " لتسألن يومئذ عن النعيم!!" ؛ فكيف لو رأى زماننا هذا؟! إنهم مع حالهم أشكر منا لله عز وجل!! ونحن قد أغدقنا الله بالنعم غدقا ومع ذلك استعملناها في التخريب والفساد والإفساد والجحود والكفران!! وهذا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم؛ روي أَنَّ عُمَانَ بْنَ مَطْعُونٍ دَخَلَ يَوْمًا الْمَسْجِدَ وَعَلَيْهِ مِرَّةٌ قَدْ تَحَلَّلَتْ فَرَفَعَهَا بِقِطْعَةٍ مِنْ فَرَوَةٍ، فَرَقَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَقَّ أَصْحَابُهُ لِرِقَّتِهِ، فَقَالَ: " كَيْفَ أَنْتُمْ يَوْمَ يَعْدُو أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، وَتُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ قِصْعَةٌ وَتُرْفَعُ أُخْرَى، وَسَرَّتُمْ الْبُيُوتَ كَمَا نَسْتُرُ الْكَعْبَةَ؟" ، قَالُوا: وَدِدْنَا أَنْ ذَلِكَ قَدْ كَانَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاصْبِنَا الرَّحَاءَ وَالْعَيْشَ، قَالَ: " فَإِنَّ ذَلِكَ لَكَائِنٌ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ حَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَاكَ" (حلية الأولياء).

فاذكروا الله يذكركم ؛ واشكروه على نعمه يزدكم ؛ واستغفروه يغفر لكم . قال تعالى: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم: 7]. قال بعض السلف رحمهم الله تعالى: "النعم وحشية فقيدها بالشكر". وقال الحسن البصري: "إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذاباً، ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ، لأنه يحفظ النعم الموجودة، والجالب، لأنه يجلب النعم المفقودة."

وقال كعب الأحبار- رحمه الله تعالى-: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة. وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا، فلم يشكرها لله، ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقات من النار يعذب به إن شاء أو يتجاوز عنه" . «عدة الصابرين» .

فعليكم بمداومة شكر العبادات؛ فشكر الصيام صيام مثله؛ وشكر الصلاة والقيام كذلك بالمثل؛ وشكر الإنفاق إنفاق مثله ؛ وبذلك تكون دائم الشكر ؛ مقتدياً بحبيبك صلى الله عليه وسلم : " أفلا أكون عبداً شكوراً " .

نسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين الذاكرين؟؟؟؟؟؟؟؟

وكل عام وأنتم بخير ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛؛

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي